# الجامعات الافتراضية: إيجابياتها وسلبياتها

إعداد

**د. هاني جرجس عياد**

دكتوراه في علم الاجتماع – كلية الآداب – جامعة طنطا

حتى سنوات قليلة؛ لم تكن مصطلحات الجامعة الافتراضية، وجامعة الإنترنت وغيرها؛ شائعة في أوساط التعليم الجامعي والعالي، ولكنها ظاهرة حديثة تزامنت مع التنامي المتسارع في إمكانات تقنية المعلومات والاتصال، خصوصا تقنية الإنترنت وتطبيقاتها في أواسط وأواخر التسعينات في القرن الميلادي الماضي.

وتعرف الجامعة الافتراضية بأنها مؤسسة تقدم خدمة تعليمية غير مباشرة تلبي حاجات متعلمين ذوي رغبة في تعليم يُحاكي ما تقدمه الجامعات التقليدية، أولئك المتعلمون لم تتح لهم فرص الالتحاق بها؛ نتيجة ظروفهم الحياتية. وتستند هذه الخدمة الافتراضية على التعلم الإلكتروني عن بعد خلال بنية تكنولوجية متقدمة تبث عبر الإنترنت متخطية حدود المكان والزمان، يحدث التفاعل والتحاور بين المتعلمين والمعلم وبين المتعلمين أنفسهم وقتما شاءوا وحيثما كانوا.

وبدأت الجامعات الافتراضية في الظهور في جامعة نيويورك بشمال شرق إسبانيا بكلية افتراضية واحدة من كليات الجامعة، وكانت تجربة مشجعة جدا؛ مما حدا بالعديد من مؤسسات التعليم العالي إلى خوض التجربة نفسها. وفي أوائل عام ٢٠٠٠ صدر تقرير يوضح أن هناك أكثر من٣٠٠ مؤسسة متخصصة مكرسة للتدريب عبر الاتصال المباشر في الولايات المتحدة وحدها.

ونمو الجامعات الافتراضية ليس ظاهرة مقتصرة على الولايات المتحدة الأمريكية، ففي عام ١٩٩٨ تأسست جامعة كوريا الافتراضية كصيغة من صيغ إصلاح التعليم العالي، وبعد ثلاث سنوات بلغ عدد البرامج التي تقدمها نحو ٦٦ برنامجا تعليميا لنيل شهادة البكالوريوس، استفاد منها زهاء ١٤,٥٥٠ طالب. كما قدمت جامعة سول الافتراضية حوالي عشرين مقررا إلكترونيا، كما أنشأت كندا الحرم الجامعي الافتراضي المكون من ١١ جامعة يقدم فيها ما يزيد على ٣٥٠ درجة علمية، و٢٥٠٠ مقرر إليكتروني يخدم ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ طالب.

كما حدث نمو هائل في مبادرات التعليم الجامعي الافتراضي، ففي عام ٢٠٠٢م درس أكثر من ٣٥٠.٠٠٠ طالب في الولايات المتحدة من خلال تعلم جامعي افتراضي بالكامل للحصول على درجات علمية، وقامت الجامعات المرموقة كجامعة هارفارد بتقديم برامج أكاديمية افتراضية، وحققت حوالي ١٥٠ مليون دولار من عائدات برنامج التعليم عن بعد؛ الذي خدم حوالي ٦٠.٠٠٠ طالب وطالبة متفرغين جزئيا. ومن جهة أخرى أسس الاتحاد الأوروبي خطة إلكترونية بعنوان "جامعات القرن الحادي

والعشرين"، وهي عبارة عن ائتلاف جامعات أوروبية لنقل التعليم الجامعي إلى الطلاب في أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية رصد لها ١٣.٣ بليون دولار.

وقد ساعد على انتشار الجامعات الافتراضية عالميا وجود العديد من العوامل يتمثل أبرزها في:

- زيادة الطلب على التعليم العالي، حيث أشار البنك الدولي إلى أن حوالي ١٥٠ مليون شخص سيحتاجون تعليما جامعيا في العام ٢٠٢٥.
- التطور الهائل في إمكانات تقنية الإنترنت الذي فتح أبواب التعليم العالي لجمهور جديد ومتنوع، وشجع الجامعات على تأسيس أسواق جديدة في مواقع جغرافية بعيدة، وقدرت مؤسسة الأبحاث التسويقية أعداد مستخدمي الإنترنت عالميا في ٢٠١٩ بحوالي ٤,٥ مليار فرد.
- رغبة العديد من الدول في توسيع فرص التعليم الجامعي وتحسين جودة التعليم وتقليل التكلفة.

بدأ هذا النمط من التعليم بالظهور والانتشار في البلاد العربية منذ فترة ليست بالبعيدة، في محاولة للاستفادة من الإنترنت في نشر ثقافة التعليم عن بعد، لكن ما فات القائمين على هذه الفكرة هو ضرورة الإعداد الجيد وتوفير البيئة المناسبة لتطور هذا نوع من التعليم. وأبرز الجامعات العربية هي: الجامعة السورية الافتراضية، والجامعة الافتراضية التونسية، والجامعة الافتراضية المغربية.

حتى تلاقي الجامعة الافتراضية كل هذا الانتشار والإقبال من قبل الطلاب في مختلف أنحاء العالم لابد وأنها تتمتع بالكثير من الإيجابيات التي سنُضيئ على بعض منها:

- الإتاحة: أي أن المتعلم يستطيع الالتحاق بالجامعة الافتراضية من أي مكان في العالم دون قيود روتين الجامعات التقليدية.
- المرونة: فالمتعلم لا يتقيد بزمان التفاعل والتواجد في بيئة التعلم، فهو من يحدد متى وأين يتفاعل مع بيئة التعلم الافتراضية التي تلبي احتياجاته وتشبع رغباته.
- المعايشة والاستغراق.
- التفاعل: إن استخدام الإنترنت في التعلم والتدريس يوفر البيئة المثلى للتعلم من حيث توفير التفاعل المطلوب للتواصل من خلال برامج الدردشة بالبريد الإلكتروني؛ الذي كان يضمن التفاعل الصوتي والمكتوب، كما أنها تدعم المعلمين في جعل التعلم أسرع وأسهل، فالمتعلم فاعل نشط وليس سلبيا.
- التكلفة أقل في العديد من أوجه الإنفاق على التعليم التقليدي وخفض التكاليف غير المباشرة مثل: انعدام تكاليف المدينة الجامعية لسكن الطلاب، وانعدام نفقات السفر، وانعدام اشغالات فيزيقية لمباني التعليم الجامعي، بالإضافة إلى ندرة نفقات المواد المطبوعة؛ فالمقررات تقدم في صورة إلكترونية تفاعلية وهي أكثر تشويقا.

- الاستيعاب: لا حدود لاستيعاب الجامعة الافتراضية في حين أن التعليم الجامعي تحدد نِسب استيعابه وفقا لإمكاناته.
- التعامل مع الحواس المتعددة: إن المعايشة والاستغراق والتفاعل تعد نتيجة حتمية لكون هذا النوع من التعليم يخاطب حواس المتعلم كافة، وهذا ما يفتقده التعليم التقليدي.

أي شيءٍ في هذه الحياة له إيجابيات لابد أن يكون له سلبيات، وهذا هو حال الجامعة الافتراضية فلها من العيوب والمآخذ التي لا ضير من الإضاءة عليها قدر الإمكان:

- موثوقية شهادات التعليم عن بعد عبر الانترنت والتي تعتبر من أكبر التحديات التي تواجه طلاب الجامعات الافتراضية، ويعود ذلك إلى انتشار الجامعات المزيفة والشهادات الوهمية التي يمكن شراؤها من الإنترنت، هذا قد ينعكس على فرص الطالب بالوصول إلى سوق العمل وتثبيت درجته العليمة التي حصل عليها بالمراسلة.
- صعوبة اختيار البرامج الدراسية الجيدة، حيث يعتمد التعليم التقليدي على الوضوح في طرح برامجه الدراسية وعلى سمعة المؤسسة التعليمية، فيما تميل مؤسسات التعليم عن بعد إلى أسلوب تسويقي قد يكون مخادعا وجذابا لكنه غير ذي جدوى، ما يجعل الطلاب يقعون أحيانا في فخ المؤسسات التعليمية الاحتيالية على الإنترنت، أو حتى اختيار برامج غير ملائمة تحت تأثير الدعاية.
- المتطلبات الخاصة للتعليم عن بعد، مثل توفر اتصال قوي ومستقر بشبكة الإنترنت –وهو ما قد يكون عسيرا في بعض الدول والمناطق– إلى جانب حاجة الطالب لمهارات إضافية باستخدام الكمبيوتر والوسائل التقنية المختلفة، وقد يكون عمل الطالب مهددا أحيانا بهجوم إلكتروني أو حتى بتلف جهازه الخاص، ما يستدعي منه أيضا فهم آليات الحماية الإلكترونية والنسخ الاحتياطي.
- الوقوع بفخ الحرية بالتعليم ومرونة الوقت، فإن كانت إحدى ميزات التعليم عن بعد هي المرونة؛ ستنعكس هذه الميزة إلى واحد من عيوب التعليم الإلكتروني، وهو الإغراء بالتأجيل والمماطلة لعدم وجود ضغط المساءلة الذي نختبره في التعليم التقليدي.
- غياب التفاعل مع الطلاب والأساتذة أيضا من العيوب البارزة للتعليم بالمراسلة عبر الإنترنت، حيث يحرمك التعليم عن بعد من التفاعل المباشر مع الأستاذ ومن النقاشات التي تجري في الصفوف الدراسية أو بعدها، وعلى الرغم من محاولة محاكاة الفصول الدراسية المشتركة في بعض البرامج الدراسية عن بعد؛ إلا أن هذا العيب قد يجعل الكثيرين غير راغبين بالتعلم عبر الانترنت.
- في سياق متصل سيفقدك التعليم عن بعد الحياة الجامعية، خاصة إذا كنت من طلاب المرحلة الجامعية الأولى الذين لم يتسنى لهم خوض تجربة الجامعة التقليدية، والتي تعتبر من أكثر

التجارب تميزا في مسيرتك الدراسية وربما في حياتك بأسرها. هذا يشمل أيضا حرمان الطالب من تطوير مواهبه غير المتعلقة بالدراسة، مثل الرياضة أو الفنون أو غيرها من الأنشطة التي توفرها الجامعات التقليدية.

- التعليم عن بعد أقل تحفيزية للطلاب، حيث يؤدي ما ذكرناه سابقا إلى انخفاض حوافز الطالب وشعوره بالعزلة، كما أن المنافسة التي تعتبر جزءا مهما من التعليم تنخفض إلى أدنى مستوياتها في التعليم عن بعد.

ويمكن القول بالحاجة لتبني مثل تلك الصيغة ونشرها في التعليم الجامعي العربي للتغلب على كثير من المعوقات والمشكلات التي يعاني منها، وذلك بحسبانها واحدة من أبرز نماذج التعليم الجامعي عن بعد، وما تحققه من مزايا وفوائد وتلبية للطلب الاجتماعي المتزايد على التعليم الجامعي، ولكن يجب أن يسبق ذلك كله الإعداد الجيد وتهيئة المتطلبات الأساسية لنجاحها، ونشر الوعي بأهميتها للتغلب على المقاومة وتوفير البيئة التكنولوجية التي تسهم في نجاحها. فمجرد نقل تلك الصيغة لا يضمن نجاحها، ولكن الأهم هو إعداد السياق المناسب لتبنيها والإفادة منها. وفي الوقت نفسه يجب دراسة جدوى إنشاء تلك الجامعات ونماذجها، لتحقيق أقصى فائدة مرجوة منها. وعليه فإن هناك حاجة إلى:

- تشجيع جامعات التعليم المفتوح والتعليم عن بعد التقليدية على التحول إلى جامعات افتراضية تستخدم الشبكة العنكبوتية بشكل كامل أو مدعما بوسائط أخرى.
- تفعيل الشراكة بين الجامعات العربية والقطاع الخاص لتقديم برامج افتراضية لا تقدمها الجامعات التقليدية بهدف تلبية حاجات هذا القطاع ودعم الاقتصاد الوطني.
- دراسة تجارب جامعات افتراضية عالمية معتمدة وناجحة لاستخلاص الدروس والتوصيات المطلوبة لمبادرات التعليم الجامعي الافتراضي.
- دراسة التجربتين السورية والتونسية في التعليم الجامعي الافتراضي كونهما مبادرتين رائدتين.
- دراسة مدى جودة التعليم الجامعي الافتراضي.
- دراسة مدى رضا الطلاب وهيئات التدريس في الجامعات الافتراضية.

وفيما يلي بعض نصائح للدراسة عبر الانترنت والتعليم عن بعد:

- قبل كل شيء يجب أن يقوم الطالب بمفاضلة حكيمة بين التعليم الالكتروني والدراسة عن بعد من جهة، وبين التعليم التقليدي من جهة أحرى، وذلك بناء على مجموعة السلبيات والإيجابيات لكل منهما، وبناء على مدى قدرة الطالب نفسه على الاستفادة من التعليم الإلكتروني وضبط الوقت ومدى حاجته إلى هذا النوع من التعليم.
- يجب أن تبحث عن مؤسسة معتمدة، لا تكن كسولا في تقصي تاريخ المؤسسة التعليمية أو الجامعة الافتراضية قبل التسجيل والبدء بتلقي الدروس، هناك مئات الجامعات الوهمية والمعاهد

الاحتيالية على الإنترنت، وعشرات المؤسسات التي تقدم إعلانات تسويقية غير دقيقة حول ترتيبها وجودة نظامها التعليمي.

- اختر البرنامج الدراسي بعناية، فمن مميزات التعليم عن بعد أنه يوفر دورات تدريبية مصغرة تستهدف تطوير مهارات الطالب في جزء معين من الاختصاص، إلى جانب البرامج الموسعة التي تعطيك شهادات الدرجة العليمة، يجب أن تحدد أولوياتك وتختار البرنامج الدراسي بروية وحكمة.
- ضع في عين الاعتبار أن تنظيم الوقت هو الأولوية في التعليم عن بعد، يجب أن تكون حكيما في تحديد الوقت والتوقيت، وألا تقع تحت تأثير المرونة بحيث تتحول لإهمال وتسويف.
- حاول أن تنضم إلى مجتمع المتعلمين في الجامعة نفسها أو الذين يتلقون الكورس نفسه، ذلك سيساعدك على بناء تواصل افتراضي مفيد مع الطلاب ومع الأساتذة ويخفف من عزلة التعليم الإلكتروني.
- لا تتردد بطلب المساعدة من المتخصصين بالتدريب والتطوير المهني والذاتي، سيساعدك ذلك بتنظيم مرحلة الدراسة عن بعد وتحقيق الفائدة المرجوة من تجربة التعليم الإلكتروني.